الفصل الخامس والعشرون

الصناعات

كان اللباس عند أهل الشرق الأدنى أهم المطالب الثلاثة الأساسية التى يحتاج إليها جسم الإنسان، وهى: الطعام واللباس والمسكن، وكانت صناعة الملابس أرقى الصناعات، وكانت زينة البيوت من الداخل عبارة عن ستائر ملوّنة تعلّق على حيطانها. وكان أهم ما يعتبر ترفا هو أن يكون الإنسان حسن اللباس عندهم، وكان جمال المسكن يتلخص فى أن تكون حيطانه معلقاً عليها الستائر الجميلة، وأن تكون أرضه مفروشة بالبُسُط، ويحكى عن الطوسى الزاهد (المتوفى عام ٣٤٤ هـ — ٩٥٥ م). أنه لم يكن له فراش[1]، وإنما ذكر ذلك ليكون دليلا خاصا على زهده. ولهذا كانت صناعة البسط والسجاجيد منتشرة فى جميع البلاد، وكانت النماذج الصناعية لكل بلد أشبه بجزء من اللباس القومى الذى تختص به. وكان السائر فى أنحاء المملكة الإسلامية يستطيع أن يعرف فى أى بلد هو، وذلك بالنظر إلى ما على حيطان الغرف من أنواع الستائر، وكانت السجاجيد فى ذلك العصر ثلاثة أقسام: أولها الستائر المعلقة على الحيطان. وثانيها البسط والأنخاخ التى تفرش بها أرض الغرف والصحون والممرات. وثالثها الأنماط وهى تفرش على الأرض للنظر دون الدوس[2]. ويضاف إلى ذلك أنواع أخرى صغيرة، منها سجاجيد الصلاة والأغطية والمخادّ والنمارق والمقاعد ونحوها من أنواع الوسائد[3].

---

(١) تاريخ الشافعية: Wüstenfeld, AOGW 37, Nr. 129

(٢) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٢. (٣) حكاية أبى القاسم صنعة ٣٦.

وبالرغم من أن القطن كان يزرع بمصر العليا منذ زمان طويل [١] ، فإنه لم يذكر بين حاصلات مصر في القرن الرابع الهجرى ، ويظهر أنه لم يكن له شأن فى هذه البلاد التى تنبت اليوم أحسن أنواع القطن [٢] .

وكان الكتان هو القماش الذى اختصت به مصر ، وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته ، وكان يصدر إلى النواحى حتى ربما بلغ فارس [٣] . وكانت الأجساد المحنطة تلف دائماً بقماش الكتان ، وكانت صناعة النسيج من الرقى بحيث أمكن أيضاً صنع بعض الأقمشة الصوفية أيضاً [٤] ، فكانت تصنع بمدينة طحا إحدى قرى الصعيد ثياب الصوف الرفيعة [٥] . وكان المركزان الكبيران لصناعة نسيج الكتان هما الفيوم ، وبحيرة تنيس بنواحيها وهى : مدينة تنيس ودمياط وشطا ودبيق ، وكانت هذه المدينة الأخيرة فى أول الأمر أكبر المدن التى تصنع النسيج ، لأنه كان ينسب إليها أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالدبيقى . أما فى القرن الرابع فقد أصبحت تنيس ودمياط أكبر مركزين لصناعة النسيج . وكان القماش الذى يصنع بمصر هو قماش الكتان الأبيض الذى لا تلوين فيه ، وهو القماش الذى يعتبر قماشاً مصريا حقيقة ؛ حتى كان يقال فى العصر الأموى إن الأقمشة المصرية كالنشاء على البياض ، أما اليمنية فهى كأزهار الربيع [٦] . وكان من ثياب الإسكندرية ما يباع الكتان منه — إذا عمل ثياباً يقال لها الشرب — كل زنة درهم بدرهم فضة [٧] . وكان القماش المسمى بالدبيقى الثقيل جيّد النسيج إذا انشق كان

---

(١) Plinius, Hist. nat, 19, 14. (٢) وحتى أواخر القرن الثامن عشر كانت مصر تصدر الكتان إلى الشام وتستورد منها القطن Brown, Travels in (Africa, London, 1799 P. 354) (٣) المقدسى ص ٢٠٣ ، وفى عام ٢٧٣ هـ ارتفع سعر القمح بمصر حتى مات الناس من الجوع والجهد وكانوا يأكلون بذور الكتان (يحيى بن سعيد ص ١٧٨ أ) (٤) المقدسى ص ٢٤٢ . (٥) نفس المصدر ص ٢٠٢ .
(٦) البلدان ج ١ ص ٤٦ (؟) . (٧) الخطط ج ١ ص ١٦٣ .

له صوت عال شبه بعض المجان به الصراط العالى[١]، وكان هذا القماش يستعمل فى رسم الخرائط عليه بالأصباغ المشمّعة[٢]. وربما بلغ ثمن الثوب من هذا الدبيقى مائة دينار فإذا كان به ذهب بلغ المائتين[٣]. وكان الثوب الفخم الذى نبغ فى صناعته أهل تنيس يسمى البدنة، وكان يصنع للخليفة ولا يدخل فيه من الغزل — سدى ولحمة — غير أوقيتين؛ وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة، وتبلغ قيمته ألف دينار[٤]. وكان يصنع بالفيوم الستور الثمينة، يبلغ طول الستر ثلاثين ذراعاً أو أكثر أو أقل، وقيمة الزوج منها ثلاثمائة دينار[٥]. ولم يكن يستحسن للظرفاء من الرجال فى القرن الرابع الهجرى لبس الثياب الشنعة الألوان المصبوغة بالطيب والزعفران، وكان أول ما يحسن لهم اتخاذه من اللباس الكتان الناعم النقى اللون مثل الدبيقى[٦]، وحتى عام ٣٦٠ هـ — ٩٧١م كانت تنيس تصدر للعراق وحدها من الأقمشة ما تبلغ قيمته من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين[٧]، ولكن لما انتقلت مصر إلى أيدى الفاطميين منعوا الإصدار[٨]، ولذلك شاعت بمصر العمائم الدبيقية الطويلة التى يبلغ طول الواحدة منها مائة ذراع، وظلت منذ عام ٣٦٥ إلى ٣٨٥ هـ (٩٧٦ — ٩٩٥ م)[٩]. وكان يوجد إلى جانب هذه الثياب الجيدة ثياب رقيقة « مهلهلة النسج كأنها المنخل[١٠]، وهى

---

(١) حكاية أبى القاسم ص ٩٣، ١٠٩. (٢) الفهرست ص ٢٨٥.

(٣) ابن حوقل ص ١٠١. (٤) الخطط للمقريزى ج ١ ص ١٧٢، وابن دقاق ج ٢ ص ٧٩. (٥) ابن حوقل ص ١٠٥. الموشى الموشاه طبعة برونو ص ١٢٤، وكتاب المرواة الشمالى مخطوط برلين رقم Pet 59 ص ١٢٩ب، وحكاية أبى القاسم ص ٣٥. (٧) الخطط ج ١ ص ١٣٧. (٨) ابن دقاق ج ٢ ص ٧٩.

(٩) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٢٩ (؟) وذكر ياقوت (معجم البلدان) فى العصر المتأخر بلداً بالعراق تسمى دبيقة لم أر لها قط ذكراً فى القرن الرابع، وهذا لا يدل على انتقال صناعة الكتان المصرية إلى هناك، فربما يكون هذا الموضع سمى بذلك نسبة للقماش الدبيقى المشهور، كما سمى موضع قرب بغداد باسم سوسنجرد (انظر Carabacek Die persische Nadelmalerei, s, 117 (١٠) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٨٩٠.

المسماة بالقصب ، وكان هذا القصب يلوّن ، وكان الملوّن منه يُنسج بتنيس ، ولم يُنسج في أي مكان آخر قصب ملوّن مثله ، وكان يُعمل منه عمائم الرجال ، ووقايات وملاءات للنساء ؛ أما الأبيض فكان يُنسج بدمياط [1] . وفي القرن الخامس الهجري ظهر نوع جديد من القماش وهو المسمى أبا قلمون ، وهو قماش يظهر للرائي في ألوان مختلفة . وكان يصنع في مدينة تنيس وحدها [2] .

وكانت صناعة النسيج في الدلتا المصرية صناعة منزلية ؛ فكان النساء يغزلن الكتان والرجال ينسجونه ، وكان تجار القماش يدفعون لهم أجرهم كل يوم ، ولم يكونوا يستطيعون أن يبيعوا إلا للسماسرة الذين تعينهم الحكومة ، وكانت أجرة النساج في أوائل القرن الثالث الهجري نصف درهم كل يوم « وذلك لا يفي بثمن الخبز الذي يأكله » ، ويشبه هذا ما قاله أهل تنيس لكي للبطريرك ديونيسيوس التلمحدى [3] لما مر ببلدهم في ذلك العصر ، وكان ثمن قطعة القماش يرتفع ارتفاعاً باهظاً بسبب المكوس والضرائب المتنوعة [4] .

وكان للمشرق أيضاً مراكزه الخاصة لنسيج الكتان ، وذلك بفارس ، وكانت أكبر مدينة بفارس لصنع ثياب الكتان مدينة كازرون ؛ حتى كانت تسمى « دمياط الأعاجم » [5] ، وكانت أنواع الأقمشة بفارس هي الأنواع

---

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٥١ من النص الفارسي ، وحكاية أبي القاسم ص ٥٣ — ٥٤ مثلا .

(٢) رحلة ناصر خسرو ص ٣٧ من ترجمة شيفر ، وحكاية أبي القاسم ص ١٣٦ ، على أن مؤلفي القرن الرابع لم يصفوا أبا قلمون هنا ، فهو عند المقدسي (ص ٢٤٠ — ٢٤١) من عجائب المغرب ، ويصفه بأنه دابة تحتك بحجارة على شط البحر ، وهو في لين الخز لونه لون الذهب ، وهو عزيز الوجود مجمع وتنسج منه ثياب تتلون في اليوم ألواناً ، وربما بلغ الثوب منه عشرة آلاف دينار ، وفي القرن الخامس الهجري وجدت مرتبة قلمون في خزائن الفرش والأمتعة التي للفاطميين (الخطط جزء ١ ص ٤١٦)

(٣) Michal Syrus ed. Chabat, 516

(٤) انظر الفصل الخاص بالمسائل المالية

(٥) المقدسي ص ٤٣٣ — ٤٣٤

المصرية من الدبيقي والشرب والقصب ؛ مما يدل على صلة بين الصناعتين بمصر وفارس ، ويقول المقدسي (ص ٤٤٢) إنه تصنع بمدينة سينير (إحدى المدن الساحلية بفارس) ثياب تشا كل القصب ، وإنه ربما حمل إليهم الكتان من مصر ، أما في عصر المقدسي فهو يقول إن أكثر ما يعمل بسينيز من الذي يزرع عندهم ، وفي كلام المقدسي هذا دليل على أن صناعة نسج الكتان نقلت إلى فارس من مصر ، وكان الكتان ينقل بطريق البحر ، وكان في أول الأمر يصنع بالمدن الساحلية مثل سينيز وجنّابة وتوّز ، ولم تنتقل صناعته إلى داخل بلاد فارس إلا فيما بعد عند ما استقلت فارس بكتانها عن مصر ، ويسمى أحسن الكتان الفارسي بالتوّزي نسبة إلى توز وإن كان أكثره يعمل بكازرون[1] .

وهاك ما ذكره ابن البلخي في وصفه لمملكة فارس حوالي عام ٥٠٠ هـ — ١١٠٦ م عن كيفية صناعة الثياب التوزية بمدينة كازرون : يُبَل الكتان في البرك ثم يفصل بعضه عن بعض ويغزل ؛ ثم تغسل خيوطه في ماء نهر الرهبان ، وماء هذا النهر وإن كان قليلا شحيحاً فإن له خاصية تبييض خيوط الكتان مع أنها لا تبيض في غيره من الماء ، وهذا النهر ملك لخزانة السلطان ، ودخله يرد إلى بيت الأمير ، ولذلك لا يُصرح بالغسل فيه إلا للنساجين المكلفين بذلك ، ويتولى الإشراف عليه ناظره ، وثم سماسرة يعينون الثمن العادل للأقمشة ويختمون اللفائف المخزونة قبل تسليمها للتجار الأجانب ، وكان هؤلاء يثقون بالسماسرة ويشترون اللفائف من غير أن يفكوا حبالها ؛ بل يأخذونها [illegible] ، وكانت إذا وصلت اللفائف إلى أي بلد اشتراها التجار من غير أن يفتحوها ، واكتفوا بمجرد السؤال عن شهادة السمسار بكازرون ، فكثيراً ما كان يحدث أن ينتقل الحل من لفائف كازرون حتى تتداوله عشر أيدٍ من غير أن يُفك وثاقه ، ولكن في هذه الأيام

---

[1] [illegible]سي ص ٤٣٥ .

الأخيرة ظهر الغش ، وصار الناس خونة ، وانعدمت الثقة كلها ، وكثيراً ما وجدت البضائع المختومة بختم السلطان من نوع ردىء ، ولذلك انصرف التجار عن بضائع كازرون[١] .

وإذا صرفنا النظر عما تقدم وجدنا أن مركز القطن فى المشرق من مملكة الإسلام كمركز الكتان فى مغربها[٢] ، بل كان القصب الذى يصنع بمدينة كازرون يعمل من القطن فى كثير من الأحيان ، وقد حمل القطن من الهند إلى الشمال مباشرة قبل أن ينقل غرباً أو شرقاً بزمن طويل ، ولم يكن القطن معروفاً فى الصين فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد ذكره الرحالة الصينى تشانشنج Chanchung حوالى عام ١٢٢١ م فى وصفه لوادى إيلى وهو يقول : « وهناك نوع من القماش يسمى لولوما يقول إنه يصنع من صوف نبات ، وهذا الصوف يشبه زهر الكاتكن الذى نراه فى مراعينا ، وهو نقى ناعم لين ، ومنه يصنعون الخيوط والحبال والقماش والأغطية[٣] ، وفى القرن الرابع الهجرى كان يصدر من مدينة كابل ثياب من قطن مشهورة بحسنها يُعمل منها ما يسمى السبنيّات التى كانت تحمل إلى الصين وخراسان[٤] . ولم يكن القطن يزرع بالعراق وإنما نقل إليها من شمال فارس ومما بين النهرين[٥] ، — ولا تزال بلاد ما وراء النهر تنتج من القطن ما تبلغ قيمته أربعمائة مليون مارك — وقد نشره فيما بين النهرين أمراء الحمدانيين ، على الرغم مما عرف عنهم من الجور على الزراع وعدم الاكتراث بالأشجار[٦] . وكذلك انتشر القطن فى القرن الرابع بشمال إفريقية[٧] ،

---

(١) JRAS 1902, s. 337 .

(٢) يقول الثعالبى ؛ وقد علم الناس أن القطن لخراسان ، وأن الكتان لمصر (لطائف المعارف ص ٩٧) .

(٣) Bretschneider, Mediaevol researches I, s. 70, 31

(٤) ابن حوقل ص ٣٢٨ .

(٥) W. Busse, Bewässerungowirt. in Turan, s. 72 .

(٦) انظر الفصل الخاص بالمالية .

(٧) البكرى طبعة سلين ص ٥٩ ، ٦٩ .

والأندلس[١] . أما المراكز الكبرى لصناعة القطن فكانت تقع فى شرق فارس وهى مرو ونيسابور وبم (بشرق كرمان) . وقد اشتهرت هذه المدينة الأخيرة بثياب القطن الفاخرة ، وكان من طرائف ما يعمل فيها الطيالسة المقوّرة التى تنسج برفارف ، يبلغ الطيلسان منها والشرب الرفيع ثلاثين ديناراً ، وكانت تحمل إلى أقطار الأرض ، وتباع بخراسان والعراق ومصر[٢] . وكان يصنع فى مرو القطن الذى يبلغ الغاية فى اللين[٣] ، وهو لا يمكن أن يلبس لثقله وغلظه ، ولذلك يسميه المتنبى لباس القرود[٤] . ويقول أبو القاسم لقوم يستقبحهم « على أبدانكم ثياب بفت خشن مروىّ غليظ من غزل البيت طاقة وضرطة ونزول مطابقة منها قمصانكم ومنها عمائمكم »[٥] . ولكنه كانت تتخذ منه العمائم[٦] . وكان يحمل من الإقليم الذى يزرع فيه القطن بالتركستان الثياب القطنية[٧] ، على حين أن الكتان كان من أندر الأشياء ببلاد ما وراء النهر ، ويحكى عن إسماعيل السامانى أنه أهدى لكل قائد فى جيشه ثوباً من الكتان كهدية قيمة[٨] .

أما صناعة الحرير فقد صارت على عكس صناعة القطن ، منتشرة من بوزنطة شرقاً ، ويقول المسعودى إنه منذ أن غزا سابور ملك فارس بلاد الجزيرة وآمد وغيرها من بلاد الروم ، ونقل من أهلها خلقاً كثيراً أسكنهم مدناً من فارس ؛ صار الديباج يعمل بتستر والخز بالسوس حتى عصر المسعودى[٩] . وكان استيراد الديباج والبزيون والثياب والأكسية الرومية لا يزال مستمرا فى القرن الرابع ، وكان ذلك أهم ما يمر بمدينة أطرابزنده[١٠] ، وكانت ديباج الروم مشهورة معروفة

(١) Moro Rasis, s. 56 . (٢) ابن حوقل ص ٢٢٣ .
(٣) المقدسى ص ٣٢٣ ، ابن حوقل ص ٣١٦ ، وابن الفقيه ص ٣٢٠ ، ولطائف المعارف ص ٥١١٩ . (٤) ديوان المتنبى طبعة بيروت ص ١٧ .
(٥) حكاية أبى القاسم ص ٣٧ . (٦) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٦٢ .
(٧) ابن حوقل ص ٣٦٢ . (٨) Vàmbèry, Geschichte Bacharas, s. 63
(٩) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٦ . (١٠) ابن حوقل ص ٢٤٦ .

بجودتها فى القرن الرابع[١] . وكانت أكبر مصانع نسج الحرير فى ذلك العصر توجد باقليم خوزستان ، حيث نقل الساسانيون هذه الصناعة من بلاد الروم ، وكانت أنواع الحرير من ديباج وخز وستور تصنع هناك . أما صناعة الأبريسم فكانت متركزة فى الشمال على طريق الصين القديم ، فكانت تصنع بمدينة مرو باقليم طبرستان (الأراضى الجبلية الواقعة جنوب بحر الخزر) ثياب الأبريسم التى كانت تصدر إلى جميع الآفاق[٢] ، وكان أهل أرمينية يصنعون من هذا الأبريسم التكك الأرمينية المشهورة التى كانت تباع الواحدة منها بدينار إلى عشرة دنانير[٣] ، والثياب الحرير الثقيلة التى كانت تصدرها طبرستان تدل على صلة قريبة بين صناعة الحرير بطبرستان وصناعته بالصين ، لأنها ثقيلة ؛ أما الصناع الفرس فكانوا يؤثرون الأقمشة الرفيعة الرقيقة .

أما الفُرُش الصوفية فكان الناس يميزون فيها بنوع خاص بين الفارسية والأرمينية والبخارية ، وكانت البسط الفارسية الحقيقية (المسماة بالبسط السنّية) تعمل بفارس ، وكان أحسنها ما يصنع على طريقة أهل سوسنجرد[٤] ، وكان الناس فى القرن الرابع يقدمون البسط الأرمينية على ما عداها من البسط[٥] ، وعن هذه البسط أخذت صناعة البسط الأزميرية المشهورة عندنا ، وقد وُصف أحد الخلفاء حتى فى العصر الأموى وهو الوليد بن يزيد بأنه كان جالساً فى بيت منجد بالأرمنىّ أرضه وحيطانه[٦] ، وكانت الخيزران أم الهادى والرشيد تجلس

---

(١) لطائف المعارف للثعالبى ص ١٣١ ، بل كان الديباج يجلب إلى بلاد المسلمين من فرنسا (ابن الفقيه ـ ٢٧٠) . (٢) الأصطخرى ص ٢١٢ ، وابن حوقل ص ٢٢٢ .

(٣) ابن حوقل ص ٢٤٦ ، وهذه الصناعة هى أغلى الصناعات ببغداد اليوم ، وكان المعروف أن أصل الفز بجرجان وطبرستان جاء من مرو (ابن حوقل ص ٣١٦) ، وفى القرن الرابع كان بزر الأبريسم يؤخذ كل سنة من جرجان إلى طبرستان . (ابن حوقل ص ٢٧٣) .

(٤) Karabaçek, Die persische Nadelmalerei Sûsangird, Leipzig 1881 .

(٥) لطائف المعارف للثعالبى ص ١١١ ، ٢٣٢ ، وحكايه أبى القاسم ص ٣٦ .

(٦) الأغانى ج ٥ ص ١٧٣ .

فى دارها على بساط أرمنى وعندها أمهات أولاد الخلفاء وغيرهن من بنات هاشم على نمارق أرمينية[١] . ولما مات الحسين بن أحمد المعروف بابن الجصاص وكان صاحب مال وجوهر وأثاث وكان أوسع أهل بغداد ثروة حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م كان من أهم ما ذكر فى جملة ما احتوت عليه داره الفرش الأرمينية[٢] . وذكرت الفرش الأرمينية أيضاً من جملة ما كان فى خزائن أم المقتدر[٣] ، ويحكى أن بعض عمال الخليفة أهدى إليه سبعة بسط أرمينية فى جملة ما أهداه إليه[٤] ، وكان يفضل من البسط الفارسية ما هو أشبه بالأرمينى فى صناعته[٥] ، وكانت توصف البسط الفارسية التى تعمل بأصفهان والتى كان خسنها مشهوراً فى الآفاق بأنها إن استعملت مع الأرمينى الفاخر من الفرش حسنت معه وإن بُسطت وحدها اجتزئ بها[٦] ، وقد قال ماركو بولو (حـ ١ ص ٣) إن الفرش الأرمينية أجمل الفرش وأحسنها صناعة ، وربما كان سبب ذلك التقدير للبسط الأرمينية جودة الصوف الأرمينى الذى يعتبره الثعالبى أجود الصوف بعد صوف مصر[٧] وكان أحسنه الصوف الأرمينى الأحمر ، ويقول المسعودى حوالى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م إن الأحمر استعماله فى حالة الزينة والطرب وأوقات السرور واستعمال النساء والصبيان ، وإن حس البصر مشاكل للون الحمرة ، إذ كان من شأنه أنه إذا أدركها انبسط نور البصر فى إدراكها ؛ ولكنه إذا وقع على اللون الأسود اجتمع نوره ولم ينبسط فى إدراكه انبساطه فى إدراك الحمرة ، وذلك للنسبة الواقعة بين

---

(١) مروج الذهب ج ٦ ص ٢٣٤ .
(٢) غريب ص ٤٨ . (٣) مسكويه ج ٥ ص ٣٨٩ .
(٤) Elias Nisib. a. 202 . (٥) الأصطخرى ص ١٥٢ .
(٦) ابن رسته ص ١٥٣ .
(٧) اللطائف المعارف ص ١٢٨ ، ويلى ذلك صوف تكريت ثم صوف فارس ، وترجم أصل هذا النص الذى ذكره الثعالبى إلى كتاب التجارة للجاحظ (انظر مجلة ZDMG. VIII 529

نور البصر و بين لون الحرة[١] ، وكان من أهم ما ذكر ضمن خزائن الفرش والأمتعة بالقاهرة فى بعض العصور الحراء المذهبة[٢] ، وقيل فى الفرش القرمزية التى كانت تعمل بمدينة أسيوط بصعيد مصر أنها تشبه الأرمنى[٣] . أما الفرش المسماة بالطنافس فهى تدل من اسمها على أثر الفن الرومى كلمة tapetes الرومية تقابل كلمة طنافس العربية) ، ولا بد أنها كانت فى أول الأمر تصنع بالعراق فى مدينة الحيرة ، وهى مدينة نصرانية قريبة من حدود الروم ، وذلك لأن الطنافس التى كانت تصنع فيما بعد فى مدينة النعمانية كانت تسمى الطنافس الحيرية[٤] ، وهذه النسبة لا تخلو من دلالة ، وكانت الصور التى ترسم عليها هى هى دائماً : الزخارف والفيلة والخيل والجمال والسباع والطيور[٥] .

وكانت الحصر تصنع فى جميع أنحاء المملكة الإسلامية من الحلفاء ، وكان أشهرها ما يصنع بعبّادان ، وهى مدينة فى جزيرة بين دجلة والعراق ونهر خوزستان ليس وراءها إلا البحر[٦] . وكانت حصرها تُقلّد فى مصر وفارس[٧] . وكانت البلاد المشهورة تنقش على مايصنع فيها عبارة : عمل مدينة كذا أو كذا ، ليكون ذلك دليلا على أصلها ، وهذا لم يمنع الغش بالطبع ، فمثلا كانت بعض المدن التى لا شهرة لها تعمل ستوراً تشبه الستور التى كانت تصنع بمدينة بِعِنّى وتكتب عليها اسم بِعِنّى لتدلسها فى الستور الجيدة ، كما كانت بعض الثياب تعمل فى بعض البلاد ويكتب عليها اسم بغداد على سبيل التدليس[٨] .

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ١٠٢ .
(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤١٦ — ٤١٧ .
(٣) جغرافية اليعقوبى ص ٣٣١ . (٤) ابن رسته ص ١٨٦ .
(٥) تاريخ بغداد طبعة سلمون ص ٥٢ ، والمقريزى ج ١ ص ٤١٧ ، وانظر Kremer Kulturgeschichte, II 289 .
(٦) المقدسى ص ١١٨ . (٧) نفس المصدر ص ٢٠٣ ، ٤٤٢ . (٨) الأصطخرى ص ٩٣ .

وقد ازدهرت بإقليم سابور من أعمال فارس صناعة خاصة تشبه الصناعة التى اختصت بها الرفيرا الفرنسية وهى صناعة الروائح العطرية ، وكانت الزيوت العطرية فى ذلك العصر تتخذ من البنفسج والنيلوفر والنرجس والكارده والسوسن والزنبق والمرسين والمرزنجوش والبادرنك والنارنج[١] ، وقد حاول البعض أن يقوم بهذه الصناعة الغالية فى العراق ، فاستحدثت الكوفة دهان الخيرى ، وكانت فى الخيرى والبنفسج تفوق سابور[٢] ، وكانت بمدينة جور (تقع جنوب فارس) صناعة تشبه الصناعة المتقدمة ، ولكنها تنفصل عنها تمام الانفصال ، فكان بمدينة جور يحضّر ماء الورد ، وذلك من زهور غير الزهور الأولى ؛ مثل الورد والطلع والقيسوم والزعفران والخلاف ، وكان ينقل ماء الورد من جور إلى سائر البلدان ، فيُحمل إلى المغرب والأندلس ومصر واليمن وبلاد الهند والصين[٣] . وهاتان الصناعتان اللتان لم يحدثنا الأقدمون بشىء عن أصلهما لا بد أنهما نشأتا فى العصر الإسلامى .

وقد أصبحنا فى القرن الرابع الهجرى لا نسمع شيئاً عن الطاحون التى تدار باليد وتحدث جعجعة ، لا عند أهل المدن ولا عند أهل القرى ، بل كان على الأنهار أرحاء فى سفن[٤] . وكان على النهيرات الصغيرة أرحاء مائية تدور[٥] ، وكان على نهر الشيطان وحده — وهو بجيروفت — خمسون رحى[٦] ، وقد عالج أهل البصرة مشكلة من أحدث مشاكل استعمال حركة الماء ، وذلك أنه كان عندهم الجزر والمد ، وكان الماء يزورهم فى كل يوم وليلة مرتين ، ففى أثناء المد يدخل الماء الأنهار ، وفى أثناء الجزر ينحسر راجعاً ، فعمدوا إلى أرحية أقاموها

(١) المقدسى ص ٤٤٣ . (٢) الأصطخرى ص ١٥٣ ، وابن حوقل ص ٢١٣ .
(٣) ابن حوقل ص ٢١٣ . (٤) المقدسى ص ٤٠٨ مثلا ، ومفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٧١ . (٥) المقدسى ص ٤٠١ ، ٤٦٦ .
(٦) ابن حوقل ٢٢٢ .

على أفواه الأنهار ليديرها الماء فى أثناء حركته خارجاً وداخلا[١]، ولم يكن الناس يستعملون الدواب فى إدارة الطواحين إلا فى الجهات التى ليس بها أنهار[٢] ، وكان أهل مدينة ايجلى بمراكش يتهيبون من تسخير الماء تورُّعاً « فكان بغربى مدينتهم نهر كبير عليه بساتين كثيرة ، ولم يتخذوا قط عليه رحى ، فإذا سئلوا عن المانع لهم من ذلك قالوا : كيف يسخَّر مثل هذا العذب فى إدارة الأرحاء ! »[٣]، وكانت أكبر الأرحاء العائمة تقوم على نهر دجلة ، لا على الفرات ، وذلك فى تكريت والحديثة وعكبرا والبردان وبغداد ، وكان بعض الأرحاء المشهورة بالموصل وبمدينة بلد أيضاً ، وكانت طواحين مدينة بلد هذه (تقع فوق الموصل على نهر دجلة) لها فصل تدور فيه وهو المدة التى تحمل فيها الحنطة فى السفن إلى العراق ، وقد انتهى إلينا وصف مطاحن الموصل ، فكانت تسمى الواحدة منها عربة ، وهى مصنوعة من الخشب والحديد الذى لا يمازجه شىء من الحجر والجص ، وهى تقوم فى وسط الماء بسلاسل حديد ، كل عربة فيها حجران ، يطحن كل حجر منها خمسين وقراً فى كل يوم[٤] ، وكان أكبر رحى ببغداد رحى يقال لها رحى البطريق ، فقد كانت مائة حجر تغل فى كل سنة مائة ألف ألف درهم[٥] . ولم يحدثنا أحد من المؤلفين عن أرحاء نشر الخشب .

ويحكى عن أبى لؤلؤة بن فيروز ، قاتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،

---

(١) المقدسى ص ٢٢٥ .

(٢) الأصطخرى ص ٢٧٣ بخراسان ، ويظهر أن إدارة الطواحين على الدواب لم تكن عادة أهل فارس لكثرة أنهارها ، ويذكر عن أهل مدينة خلار ، التى كانت تعد فارس كلها بحجارة الطواحين ، أنهم كانوا يطحنون غلالهم فى القرية المجاورة لهم ، لأنه لم يكن فى بلدهم رحى مائية (ابن البلخى فى JRAS, 1902, p. 335) .

(٣) البكرى طبعة سلين ص ١٦٢ . (٤) ابن حوقل ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٥) جغرافية اليعقوبى ص ٢٤٣ .

وكان فارسيا من نهاوند ، أنه قال لو شئت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت[١] . وكانت الرياح تشتد بإقليم سجستان وكرمان ويدوم هبوبها دواماً غير مألوف ، (وكانت تسمى باد ساد أو بيست روز لأنها تهب مائة وعشرين يوماً) ، وكان أهل هذه البلاد ينتفعون بهذه الرياح ، فنصبوا عليها أرحاء يسيرونها بها[٢] . ولا تزال هذه الطواحين إلى اليوم ، فيقول الرحالة سفين هيدن : « يبدأ هبوب الرياح الشمالية حوالى منتصف يونية ويستمر شهرين ، وتنصب الطواحين لأجلها خاصة ، والرحى ثمانية أجنحة ، وتكون بين أسطوانتين بينهما الهواء كالسهم ، والأجنحة تدور عمودية على قدم عمودية أيضاً ، طرفها الأسفل يحرك حجراً فيدور هذا الحجر على حجر آخر »[٣] ، فهذه الرحى طاحونة هوائية على الحقيقة . وقد حكى الغزولى فى أمر هذه الطواحين ما يبين أن من الممكن تنظيم سرعتها بواسطة منافس تُغلق وتفتح فيها كما نفعل نحن اليوم بالعجلات المائية ، وهو يقول : « حدثنى من دخل سجستان وكرمان أن جميع أرحائهم ودواليبهم تدور بريح الشمال ، قد جُعلت منصوبة تلقاءها ، وأن هذه الريح تجرى عندهم على الدوام صيفاً وشتاء ، وهى فى الصيف أكثر وأدوم ، وربما سكنت فى اليوم والليلة مرة أو مرات ، فيسكن كل رحى دولاب بذلك الإقليم ، ثم يتحرك فيتحرك ، وذكر أن هذه الدواليب المنصوبة بها اثنا عشر ألفاً وتنقطع بانقطاعها ، قال والخصب والقحط فى بلادهم معتبر بكثرة جريان ريح الشمال ، ولكنه قال : ولهم فى الأرحاء منافس تغلق وتفتح لقلة شدة دورانها وتكثر ، وذلك أنها إذا كانت قوية أحرق الدقيق فخرج أسود ، وربما حمى الرحاء فانغلق ، فهم يحتاطون لذلك بما ذكرناه »[٤] .

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٤ ص ٢٢٧ .

(٢) ابن حوقل ص ٢٩٩ ، والمقدسى ص ٣٣٢ .

(٣) Sven Hedin, Zu Land nach Indien, Bd., II, s., 147 .

(٤) مطالع البدور للغزولى طبعة مصر ١٣٠٠ هـ ج١ ص ٥٠ أما الطواحين الفارسية =

وكذلك أحدث القرنان الثالث والرابع انقلابا عظيما فى صناعة الورق ، فحررا مادة الكتابة من احتكار بلد من البلاد له واستئثارها به ، وصيراه رخيصاً جدا ، وكان الناس — طول استعمالهم للبردى — يعتمدون على مصر(١) . أما فى القرن الرابع فيحدثنا الثعالبى أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر والجلود التى كان الأوائل يكتبون عليها ، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ، ولا تكون إلا بسمرقند وبالصين(٢) . ولم يتكلم اليعقوبى فى أواخر القرن الثالث الهجرى إلا عن مدينتين اثنتين فقط تصنع بهما القراطيس فى مصر السفلى(٣) . ويحدثنا ابن حوقل أن بصقلية بقاعا قد غلب عليها البردى ، ولكن لا يُعمل منه الورق إلا للسلطان على قدر كفايته(٤) ، وأكثره يفتل حبالا للمراكب(٥) ، كما كان الحال فى العصر الهومرى من قبل(٦) . ويقول كرابجك : « يمكننا أن نقول مع كثير من الترجيح إن صناعة تجهيز ورق البردى بمصر للكتابة قد أصبحت منتهية بالإجمال حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، فنجد أن الورق البردى المؤرخ ينتهى فى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م انتهاء تاما ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م »(٧) . وكان أجود الورق فى ذلك العصر

= التى ذكرها البكرى (طبعة سلين ص ٣٦) بعمال إفريقية ، وذكرها أبو صالح الأرمنى فى تاريخه (ص ٦٣ ا) ، فلا نجد لها ذكراً فى المعاجم ، ولكنها كانت تستعمل فى تقطيع قصب السكر Lippmann, Gesch. des Zuckers, s. 110 .

(١) وكان يصنع من البردى القراطيس أو الطوامير ، ويكون طول الواحد ثلاثين ذراعاً وأكثر فى عرض شبر (حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٩٤) ، ولا أدرى معنى قول عمر بن أبى ربيعة « وقرطاسة قُوهِيّة » (ديوان عمر طبعة شفارتز قصيدة رقم ٣٢ بيت ٣ ص ٣٠) ، وربما يكون الصواب قَهْوِيّة (يعنى كلون الخمر) .

(٢) لطائف المعارف ص ١٢٦ .

(٣) جغرافية اليعقوبى ص ٣٣٨ .

(٤) ابن حوقل ص ٨٦ .

(٥) Hehn, Kulturpflanzen, 8 Auf., s. 312 .

(٦) Karabacek, Mitteilungen aus ben Papyrus Rainer, IV III s. 98 .

(٧) نفس المصدر ص ١١٤ وما يليها .

بمملكة الإسلام هو الكاغد الذى نقلت صناعته من الصين وناله على أيدى المسلمين التغيير الهام الذى يعتبر حادثا فى تاريخ العالم ، فإن المسلمين نقوه مما كان يستعمل فى صناعته من ورق التوت ومن القناب المندى ، وكان فى القرن الثالث يصنع ببلاد ما وراء النهر فقط [1] . أما فى القرن الرابع فكانت توجد مصانع الورق بدمشق وطبرية بفلسطين [2] وبطرابلس الشام [3] . ولكن سمرقند ظلت أكبر مركز لصناعته دائما ، وقد داعب الخوارزمى أحد أصحابه لأنه لم يكتب إليه فتساءل

(١) الأصطخرى ص ٢٨٨ . (٢) المقدسى ص ١٨٠ .

(٣) رحلة ناصر خسرو ص ١٢ ، ويذكر الإدريسى فى القرن السادس أنه يعمل بمدينة شاطبة بالأندلس من الكاغد مالا يوجد له نظير بمعمور الأرض ، وأنه يعم المشارق والمغارب (الإدريسى طبعة دوزى ص ١٩٢) . ويقول كراباتشك Karabaček, s. 121 إنه أنشئ مصنع لعمل الورق السمرقندى ببغداد منذ القرن الثانى الهجرى ، وهذا يعارض ما صرح به الأصطخرى والثعالبى ، ويظهر أن الثعالبى نقل عن مصدر قديم لعله كتاب التجارة للجاحظ . هذا إلى عدم ذكر خبر هذا المصنع بالمرة فى كتب المؤلفين القدماء ، مع أن منهم من كتب عن بغداد ووصفها وصفاً دقيقاً . والمصدر الوحيد الذى اعتمد عليه كراباتشك هو ابن خلدون ولكنه متأخر جدا ، ولم يذكر صاحب الخطط وصاحب ديوان الإنشاء — وهما مؤرخان متأخران ومن مؤرخى غرب المملكة الصرية — أكثر من استعمال الورق فى ديوان هارون الرشيد . ويذكر ياقوت (معجم البلدان ج ٢ ص ٥٢٢) أنه فى عصره كان الكاغد يعمل بدار القز ببغداد . وقد أراد كراباتشك متابعا لكريمر أن يتخذ مما قاله صاحب الفهرست (ص ١٠) أنه عثر على وثائق مكتوبة على ورق تهامى دليلا على وجود موضع ثالث لعمل الورق على الشاطئ الجنوبى الغربى لجزيرة العرب ، وهذا غير محتمل قط وهو يعارض ما ذكره الأصطخرى ، وسكوت الهمدانى وجميع المؤلفين المتأخرين ، على أنه إذا كان الثعالبى Z D M G, VIII, 526 يثنى على قراطيس مصر بأنها أحسن وأنعم وأرفق ، فليس بواضح من ترجمة فون هامر إن كان الثعالبى يقصد البردى أم الورق ، ويجوز أن الثعالبى كان يتكلم مع ذلك عن عصور أقدم ، وهذا يصبح مؤكدا إذا عرفنا ما حكاه ياقوت (الإرشاد ج ٢ ص ٤١٢) من أن الوزير أبا الفضل ابن الفرات كان يستعمل له الكاغد بسمرقند ويحمل إليه بمصر فى كل سنة (وتوفى ابن الفرات هذا عام ٣٩١ هـ — ١٠٠١ م) وأن احد العلماء وقعت له جملة من كتب هذا الوزير فكان إذا رأى ورقة بيضاء فى أحدها انتزعها حتى عمل من ذلك كتبا كتب فيها ، وهو على أن الكاغد لم يكن يعمل بمصر . على أنه [illegible] الثعالبى فى أن المقصود بالمدح هو كواغيد سمرقند لا [illegible] ص ٦ [illegible]

هل سمرقند بعدت عليه ، والكاغد عزّ عليه[١] ، وكان صاحب خزانة كتب السلطان بهاء الدولة بشيراز يجمع إليها كل ظريف عجيب من الكاغد السمرقندى والصينى[٢] .

وكانت مدينة حَرّان آخر مأوى لعبادة الكواكب ، وقد نشأ عن هذا المركز الدينى الخاص أن كان يُصنع بهذه المدينة آلات القياس مثل الأسْطَرْلابات وغيرها من الآلات الرياضية الدقيقة[٣] ، وكانت صحة موازين أهل حران مضرب الأمثال[٤] .

وكان يصنع بمدينة المقدس فى ذلك العصر الشبح[٥] لكثرة من كان يزور الحرم الشريف ، ولا تزال هذه الصناعة رائجة مزدهرة إلى اليوم .

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٢٥ .
(٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٤٧ .
(٣) الهَمْدانى ص ١٣٢ .
(٤) المقدسى ص ١٤١ .
(٥) نفس المصدر ص ١٨١ .